المحاضرة الأولى: الحياة العامة في الجزائر خلال القرن التاسع عشر

أولا- الحياة السياسية

تتسم الحياة السياسية في الجزائر أثناء فترة الاستعمار الفرنسي بالاضطراب والعنف المستمرين، فالجزائريون لم يهدأ لهم بال طوال هذه الفترة فقد كان الاستعمار هو مصدر هذا الاضطراب السياسي كما كان هو السبب الأول في قيام العديد من الانتفاضات والثورات المتعاقبة ابتداء من ثورة الأمير عبد القادر التي دامت زهاء سبع عشرة سنة في القرن التاسع عشر (من 1832 إلى 1847) إلى ثورة سنة أربع وخمسين في القرن الماضي.[1]

فقد مُسّ الجزائريون في مقدساتهم ومصالحهم العامة على اختلافها، من دينية وثقافية وسياسية واقتصادية. فكان لامناص من أن يكون رد الفعل عنيفا، ومن أهم تلك الثورات:

1-ثورة الزعاطشة 1849 قاموا ببسالة ولكن الجيش الفرنسي حصدهم حصدا مقاتلين ونساء وأطفالا. تولى القيادة أبو زيان أحد أعوان الأمير عبد القادر. راجع محمد العربي الزبيري: مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1972، ص72.

2-ثورة الأغواط سنة 1851، بقيادة المجاهد محمد بن عبد الله.

3- ثورة القبائل الصغرى، سنة 1853.

4-ثورة القبائل الكبرى، سنة 1857.

5- ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864- 1881)، وهي من أهم وأطول الثورات في القرن التاسع عشر، قامت في جنوب الجزائري بقيادة مرابطين.

6-ثورة الحاج أحمد المقراني 1881، في منطقة القبائل الكبرى وشمالي قسنطينة، زعيمها أحمد المقراني زعيم وجيه استشهد بعد قيامها بثلاثة أشهر، فتابع النضال بعده أخوه بومزراق.

7- ثورة الشيخ بوعمامة (1881-1904) دامت أكثر من عشرين سنة وهي أطول مدة في تاريخ الثورات المحلية في الجزائر، قائدها أبو عمامة وهو من عائلة أولاد سيدي الشيخ.

8- ثورات في الأوراس سنة 1916، وقد استخدم المحتلون أفظع الوسائل لإخمادها.

---

[1] - ينظر: عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 10-11.

وقد هزمت هذه الثورات لكن النقمة لم تهدأ، بل مرت في فترات هدنة وترقب، وقد حذر الجنرال لاكوي (Jean Gerard Lacueè 1841- 1752) من النار التي ستبقى تحت الرماد ما دامت الجزائر محتلة، وقال: إن فرنسا المستعمرة ستبقى في حرب دائمة مع أفريقيا[1].

ثانيا- الحياة الاجتماعية

من خلال النظرة التي ألقيناها على الحياة السياسية تبين لنا أن الوضع السياسي كان مضطربا، فاضطرب لذلك حبل الاقتصاد بالنسبة للمواطنين الجزائريين الذين سلبت منهم الأراضي الخصبة وأبعدوا إلى الأحراش والأوعار التي لا تسمنهم من هزال ولا تغنيهم من جوع، فنشأ عن هذا الوضع الاقتصادي اضطراب اجتماعي عام، ترتب عنه ظاهرتان اجتماعيتان هما:

1-الهجرة الداخلية حيث كان الجزائريون ينتقلون من منطقة إلى أخرى طلبة للأمن ورغبة في العيش، والخارجية إلى الخارج بسبب الاضطهاد السياسي حيث تفرقت الأسر العريقة شدر مدر، إلى سورية وتونس والمغرب، وفرار الشبان الجزائريين من الخدمة العسكرية الإجبارية في صفوف جيش المحتل

2-الصراع الطبقي بين السكان ويمكن حصر هذه الطبقات التي كان المجتمع الجزائري يتكون منها قبل ثورة التحرير في:

1- طبقة السكان الأصليين وهؤلاء مضطهدون سياسيا مهملون اجتماعيا محرومون اقتصاديا حاول المستعمر بث النزعة القبلية بينهم (عرب وقبائل).

2- طبقة اليهود: الذين يسيطرون على رؤوس الأموال ويحتكرون الأجهزة التجارية الكبرى ويتمتعون بالامتيازات الخيالية، فكان منهم التجار الكبار والأغنياء ورجال الأعمال الأثرياء الذين يتحكمون في كثير من الأجهزة الاقتصادية والمالية والصناعية في الحزائر.

3- طبقة الأوربيين: ومنهم كانت تتألأف طبقة الإقطاعيين والبرجوازيين الذي كانوا يتحكمون في أكبر الشركات والمزارع والمصانع في الجزائر برؤوس أموالهم وأموال اليهود.

ثالثا- الحياة الثقافية والأدبية في الجزائر

---

[1] - ينظر: نور سلمان: سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفضو التحرير، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص125- وما بعدها.

كان التعليم منتشرا في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي بشهادة الرحالين الغربيين، قال (فيلهلم شيمبر وهو أحد الرحالين الألمان 1804-1878)، حين مرّ بالجزائر سنة 1831م : " لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه، في حين وجدت ذلك في بلدان جنوب أروبا"[1]

أما بعد الاستعمار بحوالي سبعين عاما فقد تغير الوضع الثقافي للجزائر تماما بسبب سياسة الاستعمار الفرنسي، المستعمر الفرنسي، حيث تدهور التعليم، وأصبح الجزائريون -خاصة الشباب منهم- يعانون حالة استلاب كبيرة، وقد وصف أحد رواد الإصلاح الديني في الجزائر وهو (عمر بن قدور الجزائري 1886-1931) الذي عايش تلك الفترة الحالة التي أصبح عليها الشباب العربي قائلا: " استلبت الأمم الأخرى عقول شبان الإسلام ،واستهوى مجدها نشأته، ونخبته، فكما ترى رجلا يفتخر بذكرى عالم فرنساوي، وآخر يمجد اسم عالم انجليزي،ترى شابا يرفع عقيرته بأشعار فكتور هيجو، والآخر معجب بروايات شيكسبير ،وهكذا فلا شغل لتلك الفئة إلا حمد رجال أروبا وتمجيد نثرهم وشعرهم واختراعاتهم،ومن المحال أن يخطر في بال أحد، ذكر علاّمة مسلم أو شعر شاعر عربي مفلق، أو إصلاح مصلح شرقي .

لقد لجأت فرنسا منذ وطئت أقدامها أرض الجزائر إلى وسائل مختلفة لمحو تاريخها، وطمس شخصيتها، وقطع حبال اتصالها بالعروبة و الإسلام، وتفننت في ابتكار الوسائل لتحقيق ذلك، وأهم ما ركزت عليه هو التدمير المعنوي للشعب الجزائري وإشعاره بأنه دون مستوى المحتل، ومن ثم القبول بفرض إرادته وسيطرته عليه. وكان من بين وسائلها توظيف الأدب لهذه المهمة القذرة، وبهذا " ظهر فن جديد من فنون الأدب في اللغات الغربية لا يُعنى إلا بتحري الصفحات السود من تاريخ الشعوب المغلوبة، والغوص على مثالبها، وتشويه حسناتها، وطمس آثارها، ونسبة ما شهرت به من منجزات حضارية إلى شعوب أخرى"[2]

وهكذا نجحت سياسة الاستعمار أحيانا، وكان من نتائجها لصالح المستدمر ظهور بعض الأدباء والزعماء مستسلمين للمنطق الاستعماري، مروجين لأفكاره، والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ولعل هذا يبدو بشكل أوضح في قول أحد أبناء المدرسة الفرنسية، فرحات

---

[1] - ينظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،1975 ،ص13.

[2] - نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ط1 دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،1988،ص46.

عباس"ولو أني اكتشفت القومية الجزائرية لكنت من القوميين، ولما خجلت من ذلك فالرجال الذين ماتوا من أجل مثلهم الوطنية مكرمون محترمون، ولا تساوي حياتي أكثر من حياتهم ومع ذلك فلن أموت من أجل الوطن الجزائري لأن ذلك الوطن ليس له وجود. لقد سألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات، فلم يحدثني أحد عنه، ولا يمكن البناء على الهواء، ولقد استبعدنا تماما جميع هذه الأوهام لنربط نهائيا مستقبلنا بما حققته فرنسا لهذه البلاد[1].

هذا القول يمثل دليلا قويا على التأثير الشديد للحملة العنيفة التي شنها أدب الاستعمار لزعزعة النفوس، وخلخلة الثوابت. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالمرصاد لأولئك المثيفين، دعاة الاندماج، حيث رد الإمام ابن باديس على فرحات عباس قائلا: "إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ، وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، وهذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت"[2].

ومن وسائل الاستدمار كذلك، الإبادة الثقافية التي مارسها على الثقافة الجزائرية، فقد أغلق المدارس والمراكز الدينية التي كانت تنبعث منها الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة و " ونهب جنوده الكثير من المخطوطات العربية القيمة وأتلفوا بعضها"[3].

إن الخراب الفظيع الذي منيت به الثقافة الجزائرية، و الاستلاب الفكري الذي تعرض له بعض الجزائريين، ترك حسرة في نفوس الغيورين عليها، وجعل حالة الجزائر الثقافية يرثي لها الصديق، ويشمت بها العدو، وهذا المآل أدى إلى تعاطف بعض المفكرين والمؤرخين من وراء الحدود الجزائرية، فالمؤرخ التونسي(عثمان الكعاك) يصدر في سنة 1925 كتابيه (بلاغة العرب في الجزائر) و(موجز التاريخ العام للجزائر). "ويؤكد الكعاك أن باعثه على ذلك ما لمسه في أبناء الجزائر من انفصال عن الماضي، كاد يفقدهم كل إحساس بالشخصية والذاتية"[4]. ومن أخطر أسلحة الاستعمار كذلك تغريب الجزائريين عن اللغة العربية ففي أواخر القرن التاسع عشر زار أحمد شوقي الجزائر، وعندما عاد إلى

---

[1] – ينظر: صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 96-97.

[1]– الشهاب، أفريل1936، نقلا عن خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث، هامش ص109.

[2]– نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 53.

4– الكعاك عثمان: موجز التاريخ العام للجزائر نقلا عن خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث،ص99.

القاهرة تناقلت الصحف قوله المشهور: "ولا عيب فيها (أي الجزائر) غير أنها قد مسخت مسخا، فقد عهدت مساح الأحذية يستنكف عن النطق بالعربية، وإذا خاطبته لا يجيبك إلا بالفرنسية[1]".مع العلم أن مساح الأحذية لا يصلح معيارا للحكم على حالة الجزائر الثقافية، ولكن ما يؤكد تردي حالة العربية، وانفصال الجزائر النسبي عن المشرق، أن محمد عبده رائد النهضة في مصر زار الجزائر سنة 1904، ولم يثر مروره انتباها " وقد تحدث مفتي القاهرة أمام جمع صغير بمسجد متواضع في حي بلكور، ولم يخطر ببال أحد على ما يظهر أن ذلك العالم المفسر كان باعث النهضة السياسية والدينية، والثقافة الإسلامية[2]"

وقد زار أحد الصحفيين المصريين الجزائر مطلع القرن العشرين، وأفزعه وضعها العلمي، وتقهقر الفصحى فيها، فكتب: "إن حالة التعليم في القطر الجزائري سيئة جدا، ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات، بل ربما تندرس العربية بالمرة مع مضي الزمن، فلا الحكومة تسعى في حفظها، ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح مدارس"[3].

هكذا إذن حارب الاستعمار اللغة والثقافة العربية، وضيق عليها الخناق في عقر دارها، في حين وفر كل الظروف لتعميم استعمال الفرنسية في جميع الميادين، وفرضها بمنطق القوة، والقوانين التي سنها. ولكن على الرغم من هذا فإن الشعب الجزائري عرف بالتحدي، فقد تخبو فيه جذوة المقاومة، ولكنها تعود إلى الظهور بهبوب أول نسمة عليها، فبمجرد نهاية الحرب الكونية الأولى، وما رافقها من أحداث، شعر الجزائريون ببصيص الحرية، وبدأت ردّات الفعل في وجه محاولات المسخ والتشويه على أكثر من صعيد، واتخذت أنواعا من المظاهر، واعتمدت فنونا من الوسائل المتكيفة حسب الظروف، تبرز حينا في الاعتراض القانوني المهذب، الذي أثبت الجزائريون من خلاله أنهم شعب متحضر عكس ما يدعي الاستعمار، ومرة تبرز ردات الفعل في الصدام المسلح تمثل فيما وقع من ثورات، وتارة أخرى تتجلى في إنشاء الجمعيات الدينية والسياسية التي اعتمدت على وسائل مختلفة في المقاومة.

---

[1]– ا لشهاب، مجلد 10 مارس 1934، و سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص57،58.

[2]– شارل أندري جوليان: أفريقيا الشمالية تسير، الدار التونسية للنشر، 1976، ص125.

[3]– الشهاب، مارس 1934، وسلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص58.